هو العليم

حقيقة السير والسلوك عدم الاعتداد بالنفس

شرح دعاء أبي حمزة الثمالي – سنة ١٤٣٦ هـ ق – المحاضرة الثانية

محاضرة ألقاها

آية الله الحاجّ السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ

قدس الله سره

@MadrastAlwahy

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد

وعلى آله الطيّبين الطاهرين

واللعنة على أعدائهم أجمعين

«وما أنا يا ربّ وما خطري؟! هبني بفضلك وتصدّق عليّ بعفوك»

ما مقامي يا ربّ وما هي قيمتي لكي تعاقبني؟! هل لعقابك إيّاي فائدة ترجع إليك؟ وهل ينقص منك شيء إن لم تعاقبني؟! فمن نحن حتّى تعاقبنا أو تثيبنا وفي أيّ موضع من العالم يُحسب لنا حساب؟! وما دام الأمر كذلك فهبني بفضلك وأعطني بإنعامك وتصدّق عليّ بعفوك.

السرّ في حال الصفاء في بداية ارتباط المرتبطين بالمرحوم العلاّمة مجيؤهم بلا دعوة

تحدّثنا ليلة أمس عن ضرورة أن يُبقيَ الإنسان هذه الفكرة حيّة في نفسه، وبعبارة أخرى أنّ معنى السلوك هو أن لا يحسب الإنسان لنفسه حسابًا. وقد ذكرت ذلك للرفقاء مرارًا، فما شهدناه وجرّبناه في الأزمان السابقة التي كنّا فيها في خدمة الأعاظم هو أنّ الأفراد الذين كانوا يأتون للانتساب إليهم يكونون في بداية الأمر على حال جيّد نسبيًّا، وتصوّرات جيّدة، ومزايا حميدة؛ فمن جهة يشعرون أنّه لم ترسل إليهم دعوة...

بعض الأخلاق الرذيلة الشائعة في سائر المجالس

ففي سائر الأماكن: تفضّل! أقبل! وإن لم تأت فستنكسر قلوبنا! وإن حضرتم تنوّرون المجلس وتباركونه... فهذا ما نراه، نذهب إلى المجلس وبينما الخطيب في محاضرته إذ يدخل أحدهم، فيُقطع كلامه ويقال: على شرف فلان صلّوا على محمّد وآل محمّد. يا عزيزي فالخطيب في كلامه، المسكين جالس على المنبر ويتكلّم، ويقرأ الروايات ويعظ!

متى علينا أن نهجر هذه الأخلاق الرذيلة؟! متى نترك هذه العادات السيّئة؟! فإذا ما دخل أحد المجلس فليجلس ـ مهما كان مقامه ـ في زاوية من زواياه ولا داعي لهذه الصلوات، فهذا يؤدّي إلى أن يرفع الناس رؤوسهم وينظروا من هو الداخل، وليس الأمر مهمًّا أيًّا كان هذا الداخل!

فقد ذهبت يومًا إلى مجلس فاتحة أقيم في مدينة قم، ولم يكن هناك مكان لأجلس متكئًا على الجدار، فقد ملأوا الأماكن قبلي! فجلست في الوسط بين الناس بكلّ بساطة، وكان هناك آخرون أمثالي جالسون، وكان الخطيب يتحدّث، وكان كلامه جيّدًا؛ فقد كان يتحدّث عن الآخرة والاتّعاظ بحال الدنيا ومسائلها، وفجأة دخل المجلس رجل، وما إن دخل من طرف المجلس حتّى شرع الجميع بالسلام والصلوات، جاء فلان والسيّد فلان. والخطيب يتكلّم فضجّ الناس في طرف المجلس حتّى اضطرّ الخطيب إلى أن يقول: صلّوا على محمّد وآل محمّد، فقد أجبر هذا المسكين أن يقول في النهاية: صلّوا على النبيّ وآله. ولم يمض وقت حتّى قال ـ لا أدري لعلّه بإشارة من أحد ـ لقد حلّت البركات والأنوار بحضور السيّد فلان! كأنّ المجلس كان مظلمًا ولم يكن أحد يرى الآخر، وحين دخل هذا الرجل أضيء مصباح بقوّة ستين ألف فولت ـ لأنّه كما يقال قوّة الشمس ستّة آلف درجة ـ وبذلك صار المجلس منيرًا وخرج من ظلمته، وكانت نتيجة ذلك أن نسي الخطيب أصل الحديث، وصارت محاضرته عبارة عن صلوات استقبالًا للسيّد فلان، وصلوات أخرى استقبالًا للسيّد فلان... فرأيت أنّ المكان لا يليق بالجلوس فاستأذنت ومشيت. فالمجلس مجلس صلوات وأنا في الطريق والسيّارة يمكنني أن أرفع هذه الصلوات، فلماذا أجلس هنا؟!

فما معنى هذه الأفعال والتصرّفات؟! فالخطيب يتحدّث ويقرأ الروايات ويعظ الناس، فلو دخل أحد فليدخل وليجلس في زاوية ثمّ ليمض في سبيله، ولماذا نأتي ونسير في طريق نعلم علم اليقين أنّه لا يرضي صاحب الزمان، ولماذا نستمرّ في هذا الطريق؟! ولو لم نسر فيه تسقط السماء على الأرض أن قد وهّن فلان في هذا المجلس ولم يُعطه حقّه واحترامه!

لقد كان المرحوم العلّامة يقول مرارًا: عندما أدخل إلى غرفة الاستقبال ـ فقد كان يجلس في الداخل ـ فلا يقومنّ أحد من مقامه، كي لا يختلّ نظم المجلس، فأنا آتي وأجلس في مكان ما. فقد كان في أواخر عمره على حال لا يناسب حضور المجالس، فكان يجلس في الغرفة الداخليّة، ولكنّه كان يحضر في عيد الغدير، وفي نصف شعبان، ففي أيام التعميم كان يحضر، وكذلك في التاسع والعاشر، ولكن كان يقول: لا يقفْ أيّ من الحاضرين. وكنّا نلتزم بذلك فلا نقول: صلّوا على محمّد وآل محمّد إذا دخل، حتّى أنّي إذا كنت على المنبر أذكر أنّي لم أكن أتوقّف عن الكلام لأقول: صلّوا على محمّد وآل محمّد، فكان يدخل ويجلس وأنا أستمرّ في كلامي، فالأمر لا يستدعي أن نقطع المجلس ونصلّي على محمّد وآل محمّد. فمجلس الإمام الحسين محترم، مجلس الإمام الحسين مقدّس، مجلس الأئمّة منزّه عن أمثال هذه الأمور، هذا رغم أنّ هؤلاء كانوا من الأعاظم ومن الأولياء ومن أهل المعنى، وكانوا ينبّهوننا بهذا النحو، ويأمروننا أمرًا جادًّا غير هازلين، فلو خالفنا كانوا يؤاخذوننا أن لأيّ شيء لم تطيعوا كلامنا؟! وكان يحصل أن لا نلتفت أحيانًا فنتعرّض للّوم والمؤاخذة: عندما أنبّهكم على شيء فلا بدّ أن تلتزموا! فقد قال لي يومًا: عندما آمرك بشيء فلا بدّ أن تصغي وتنفّذ! فرأينا أنّ الأمر هنا ليس فيه مزاح كما في سائر الأماكن، حيث التظاهر بالتواضع، لا فالأمر هنا جادّ، أمّا في الأماكن الأخرى فالتواضع لا قيمة له، فلو قال إنسان: أنا لست أهلًا ولست شيئًا! فقال له قائل: نعم صحيح ما تقوله! فإنّ بطن هذا القائل ستبقر ويصنع منها مائدة، فهذه الكلمة أنا أقولها، أمّا أنت فممنوع عليك أن تقولها! فهذا التواضع في سائر الأماكن فارغ. أمّا هنا فحين يقال: قم بكذا، فلا بدّ من القيام به، ولا مزاح في البين، فهم لا يمازحون ولا يقولون هزلًا، فإذا قالوا بيّنوا الحقّ والواقع، فالمكان هنا مكان للتربية، لا للتزلّف والمداهنة، إنّما هو مكان للتربية والتزكية، مكان للتأديب والشدّ على

الآذان، فهذه هي الحال ههنا، أمّا في سائر الأماكن فلا، بل تفضّلوا ... فالمداهنة والتزلّف إلى ما شاء اللَه!!

السرّ في تغيّر أحوال المرتبطين بعد سنوات: حسابهم الحساب لأنفسهم

فهذا هو السبب في أنّا كنّا نجد الذين يرتبطون بالمرحوم العلاّمة يأتون على حال من الصفاء والإخلاص؛ فهم لم يتلقّوا دعوة من أحد، فكلّ من جاء جاء بنفسه. نعم كانت تمضي مدّة وهم على هذه الحال، فالأحوال جيّدة، وهم على صفاء وروحيّة طيّبة وصدق، ويتعاملون مع الناس بصفاء مشهود، والإنسان يسرّ إذا ما جالسهم وسلّم عليهم، ويشعر بالحميميّة معهم، ويستفيد من الحديث معهم، ويشعر بحال جيّدة وصفاء خاصّ إذا حدّثهم. ولكن إذا مضت سنة أو سنتان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة فإنّا كنّا نرى ـ وبالطبع ليس هذا حكمًا عامًّا للجميع ـ وكنّا نشعر كأنّ الإنسان بدأ يحسب لنفسه حسابًا، بدأ يجعل لنفسه موقعيّة وحقّ اختصاص في هذا المجلس حتّى صار من عناصره الأساسيّة، فلو لم يحضر في مجلس من المجالس فإنّ هذا المجلس سيكون ناقصًا، ولو لم يُدع إلى حفل ما فسوف لن يكون ذلك الحفل على ما ينبغي، فكلّ هذا يدور في خاطره! أمّا في الخارج فهو لا ينبس ببنت شفة! أو مثلًا إذا أردنا أن نقيم مجلسًا فإن لم ندْعُه فإنّه يصاب بالخيبة، فأحيانًا لا يريد الإنسان أن يدعو الجميع، فالمجال لا يسع أو لسبب آخر، وقد كان هذا الأمر إحدى المشكلات التي كنّا نعاني منها سابقًا أن كيف نتصرّف في مثل هذه الحالة؟ فإن دعوناه وقعنا في المحذور، وإن لم ندعه فإنّه يسبّب لنا مشكلة، ولا يتجاوز عن الأمر بسلام.

فهذه الحالة هي حالة السير القهقرائيّ، وعلينا أن نلتفت بكلّ حواسّنا أثناء السير إلى اللَه، كي لا نقع لا سمح اللَه بتغيير لحقيقة السير أو اتّجاهه وزاويته، فمثلًا الزاوية التي تكون هكذا قائمة فخطّها مستقيم، فإذا انحرفت في البداية ـ ولو بمقدار رأس إبرة ـ إلى جهة اليمين أو اليسار، فإنّها ستبدأ شيئًا فشيئًا بتغيير درجتها؛ ففي البداية تكون درجة زاويتها قليلة، لكنّها تكبر وتكبر، إلى أن تكتشف فجأةً بأنّ درجتها صارت بمقدار الفاصلة بين بلدين؛ أي أنّها بدأت في

البداية بميل، ثمّ طفقت تزداد وتزداد، إلى أن ترى في الأخير بأنّها صارت بمسافة مئات الفراسخ، فأصبحت مسافتها كبيرة جدًّا من دون أن يشعر الإنسان بذلك، ومن دون أن يتنبّه إليه بشكل جادّ؛ أي أنّك تراهم في البداية ـ وبعض الذين لهم إشراف على أحوال الناس وسلوكهم [يدركون ذلك] ـ يمازحون المحيطين بهم ويُلاطفونهم، لكن بعد مرور عدّة سنوات، تشعر بأنّهم لا يقدرون على القيام بمثل ذلك المزاح الذي كانوا يقومون به أولًا.

المؤمن هشّ بشّ

مع أنّ المزاح الذي نقصده هنا ليس هو ذلك النوع من المزاح البذيء؛ لأنّه غلط من الأساس، وعلى الإنسان أن يدع دائمًا المزاح البذيء والفاحش والسيّء. وأن يكون أحدهم رفيقًا للإنسان لا يُعدّ سببًا كافيًا لكي يتحدّث معه كيفما كان؛ لأنّ التكلّم بالكلام البذيء وغير اللائق هو فعل خاطئ وسيّء ويُوجب غضب الربّ وسخطه. ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يمزح بدوره مع أصحابه، لكنّه لم يكن يمزح بأيّ نحو، ولم يكن يتذرّع بالحميميّة والصداقة والقُرب لكي يرتكب الأعمال المخالفة؛ واعلموا بأنّ مثل هذه التصرّفات تُؤدّي إلى سقوط الإنسان وضياعه! فلا يتوهّمنّ أحدٌ بأنّه لا مشكلة في ذلك على مستوى عالم الرفاقة؛ لأنّ هذه الأعمال هي التي تُسقط الإنسان لاحقًا؛ أي أنّها تترك بعض الآثار في النفس التي تؤدّي إلى سقوط الإنسان فيما بعد.

وقد كان العظماء يمزحون، وكان المرحوم العلاّمة بدوره يمزح، وكذلك الأمر بالنسبة للمرحوم السيّد الحدّاد؛ فمتى ما جلسنا عنده، كنّا نراه يمزح مع الناس، غاية الأمر أنّ مزاحهم كان مليئًا بالمعاني واللطائف والدقائق، بحيث على الإنسان أن ينتبه إلى ما يهدفون إليه من وراء هذا المزاح، ويستخرج منه الحقائق. فلم يكن العظماء يعبسون ويُقطّبون الجبين، حيث يعتقد البعض أنّ الرئاسة لا تتأتّى إلاّ بتقطيب الجبين وضمّ الحاجبين حتّى يصيرا على شكل العدد سبعة!! ولو انتابهم الضحك قليلًا، لظنّوا أنّ السماء ستقع على الأرض!! وكأنّه لا ينبغي عليهم

أن يضحكوا أبدًا... فالمؤمن هو الذي يضحك دائمًا، ويتبسّم، ويمزح، ويتعامل مع الناس بوجه طلق وبشوش.

وهذا هو معنى الإيمان، وليس العبوس وتقطيب الجبين هو الذي يصنع للإنسان شخصيّة، بل إنّ مثل هذه الشخصيّة هي شخصيّة شيطانيّة وليست إلهيّة، وهي تُماثل شخصيّة عمر الذي كان يعترض على أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: إنّه لا ينفع للخلافة؛ لأنّه يكثر من الضحك والمزاح![1] فما الذي تريده؟! فهل الوالي هو الذي يكون دائم الانقباض؟ هذا مجانب للصواب، وهو مخالف لكلام الإمام السجّاد الذي يقول فيه: «وَمَا أَنَا يا رَبِّ ومَا خَطَرِي»؛ أي من أكون أنا؟! لا، أنت شخص عظيم جدًّا! وعلى الجميع أن يخشاك! ويجب عليك أن تعبس دائمًا حتى يخافك الناس ويحسبوا لك الحساب! وأمّا إن ضحكت، فلن يعتني بك أحد! لكن، كيف ستصير مثل هذه الشخصيّة؟ ستصير شخصيّة عمريّة.

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يعبس حينما يتطلّب الأمر ذلك، كما كان أيضًا يضحك إذا استدعت المسألة ذلك، وفي موضعٍ يضحك ويمزح، وفي موضعٍ آخر يتعامل بجدّية؛ فلكلّ مقام مقتضياته الخاصّة.. لماذا؟ لأنّه لم يكن يحسب الحساب لنفسه؛ فلماذا يُقطّب الجبين إذن؟! فما الذي سينقص منه حتّى يضطرّ للعُبوس؟! قد تقول: إنّهم لن يسمعوا كلامه.. فليذهبوا للجحيم إن لم يصغوا إلى كلامه، فعلى الإنسان أن يبلغ مرتبة عالية جدًّا من الأهليّة والقابليّة حتى يتمكّن من الإصغاء إلى كلام عليّ، والذي يُريد أن يُصغي إلى كلام عليّ وإلى كلام الإمام – عليه السلام– عليه أن يكون ذا شأن وقابليّة عظيمة، لا أن يسعى لكي يُحيط نفسه ـ من خلال العبوس ـ بشخصيّة كاذبة واعتباريّة ومجازيّة، ليتمكّن بذلك من صنع مكانة له بين الناس؛ فهذه الشخصيّة هي شخصيّة شيطانيّة لا رحمانيّة، وعلى المؤمن أن يكون ضاحكًا وباسمًا وبشوشًا على الدوام، بل إنّ الإسلام قائم على أساس الضحك والتبسّم والرفق.

---

[1] عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ بَيْنَا أَمْشِي مَعَ عُمَرَ يَوْمًا إِذْ تَنَفَّسَ نَفَسًا ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ قُصِمَتْ أَضْلاعُهُ، فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ واللَّهِ مَا أَخْرَجَ مِنْكَ هَذَا إِلاّ أَمْرٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ وَيْحَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَا أَدْرِي مَا أَصْنَعُ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ. قُلْتُ ولِمَ، وأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَضعَ ذَلِكَ مَكَانَ الثِّقَةِ. قَالَ إِنِّي أَرَاكَ تَقُولُ إِنَّ صَاحِبَكَ أَوْلَى النَّاسِ بِهَا يَعْنِي عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلامُ. قُلْتُ أَجَلْ واللَّهِ، إِنِّي لأَقُولُ ذَلِكَ فِي سَابِقَتِهِ وعِلْمِهِ وقَرَابَتِهِ وصِهْرِهِ. قَالَ إِنَّهُ كَمَا ذَكَرْتَ، ولَكِنَّهُ كَثِيرُ الدُّعَابَةِ (بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٣٦٣). المترجم

ففي يوم من الأيّام، جاء أحدهم إلى منزل الرسول، فوجد عنده امرأة عجوزًا كانت تُصرّ عليه: يا رسول الله، أريد منك حاجة! فكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يُلبّي لها حاجاتها، وبعد ذلك، قالت له: أريد منك شيئًا آخر، فقال لها: اذكري آخر حاجة لك، وحرّريني ! فقالت: أريد أن يجعلني الله تعالى جليستك في الجنّة! ما شاء الله.. يا لها من شهيّة! فقال لها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ الله تعالى لن يسمح للعجائز بدخول الجنّة! فشرعت في البكاء، وحينما انتهت من ذلك، قال لها الرسول: نعم، فهنّ يصرن شابّات ثمّ يدخلن الجنّة بعد ذلك![1] فانظر يا عزيزي، لقد كان الرسول الأكرم يمزح بدوره مع الناس، إلى درجة أنّ تلك العجوز بدأت تبكي؛ وكأنّه يريد أن يقول لها: صحيح أنّك وجدتِّني أرحم الراحمين ورحمة للعالمين، لكنّه عليك أن تأخذي الأمور بعين الاعتبار قليلًا، ومع ذلك كلّه، لا مشكلة في المسألة، فهنّ يصرن شابّات أوّلًا، ثمّ يدخلن الجنّة!

وأمّا لو افترضنا أنّ الرسول قال: لا تسمحوا لهذه العجوز بالدخول أبدًا، فلا وقت لديّ، ولا ينبغي عليّ أن أصرف وقتي مع مثل هؤلاء، فردّوها! فلن يكون نبيًّا، بل سيكون مثلنا نحن، ولن يكون رسولًا، ولن يكون رحمةً للعالمين، ولن يكون واسطةً؛ لأنّ الواسطة تُقال لمن يمتلك عين ما هو موجود هناك [في العالم العلويّ]، ويكون حائزًا على جميع الصفات المتحقّقة هناك، ويكون الله تعالى قد وهبه نفس ما هو متّصف به بنحو أتمّ وأكمل ولا متناهٍ، ويكون مظهرًا لله تعالى، فيأخذ منه، ويُوزّع ما يأخذه بين المخلوقات؛ فإذا كان الإنسان متحقّقًا بمثل هذه الأمور، أفلا يمزح في هذه الحالة؟!

حينما كنت أقرأ عن أحوال بعض هؤلاء الملوك، استرعى انتباهي كلامٌ ورد عن أحوال واحد منهم، حيث كان أحدُهم يتحدّث عنه ويقول: في البداية، كانت علاقتي بفلان (أحد شخصيّات الزمان الغابر) بهذا النحو: حيث كنت أمازحه ويمازحني، لكن، بعد مرور مدّة من

---

[1] نَوَادِرُ الرَّاوَنْدِيِّ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: بَصُرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلّم امْرَأَةً عَجُوزًا دَرْدَاءَ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ دَرْدَاءُ، فَبَكَتْ فَقَالَ صلّى الله عليه وآله وسلّم لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَرْدَاءُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلّم وَ قَالَ: لا تَدْخُلِينَ الْجَنَّةَ عَلَى حَالِكِ» (بحارالأنوار، ج ١٦، ص ٢٩٨). المترجم

الزمان، وانقضاء عدّة سنوات، لم أعُد أتجرّأ على ممازحته، بل الأنكى من ذلك، أنّني كلّما أردت أن أحدّثه بكلام، فإنّني أتأمّل ألف مرّة في كلامي لكيلا يُفهم منه ما يقدح في عباءته! ـ مع أنّ الظاهر أنّه لم يكن يلبس عباءةً، بل كان يلبس قميصًا وسروالًا! ـ ولا يُفهم من كلامي ما يقدح في منزلته ووجاهته، فيكون سببًا في استيائه منّي وغضبه عليّ.. فما الذي حصل؟! فهو لم يكن في الأوّل على هذه الحال، فما الذي حصل، حتّى صار هكذا شيئًا فشيئًا؟ لقد نسي بالتدريج "وما خطري"، وغابت عن باله: "وما أنا"، وحلّت محلّها تدريجيًّا: أنا موجود، وأنا كائن أتحلّى بمجموعة من الصفات. ففي البداية، كان يعيش حالة [من الصفاء والبساطة]، لكن في عالمه الخاصّ وأجوائه الخاصّة، ثمّ بدأت هذه الحالة تتغيّر شيئًا فشيئًا، إلى أن بلغ به المقام أن يقول عنه أقرب الناس إليه: لم أعُد أتجرّأ على المزاح مع صاحب السموّ!

فالإنسان لا يصل إلى هذه الدرجة دفعةً واحدة، بل بالتدريج. والأمر نفسه ينطبق علينا نحن أيضًا؛ فكلّ واحد منّا بالنسبة لنفسه هو صاحب سموّ، بدءًا منّي أنا ووصولًا إلى بقيّة الناس، غاية الأمر أنّ هذا السموّ له درجات: فبعضهم سُمُوُّه سامٍ جدًّا إلى أن يصل إلى اللَه تعالى!!! نعوذ باللَه تعالى من أمثال هؤلاء... وبعضهم سُمُوُّه دانٍ؛ فكلّنا أصحاب سموّ!

إنّ الإمام السجّاد عليه السلام يعلّمنا هنا أن: لا تسمحوا لهذا "السموّ" أن يزيد، بل حافظوا عليه دائمًا منكسرًا في المراتب الدانية. إنّ هذا هو سرّ السلوك والحركة نحو اللَه تعالى، وهو أن لا يسمح الإنسان لهذا الفرعون الذي في نفسه أن يكبر ويصعد إلى الأعلى والأعلى والأعلى حتّى يبلغ الإنسان إلى حيث لا يتحمّل كلمة تقال له، فإن وجّه إليه أحد كلمة، تجده ينفعل ويقول: لماذا قال لي ذلك؟! أنا ماذا فعلت؟! فهو لا يحتمل أيّة ملاحظة أو نقد أو نصيحة. لماذا؟ لأنّ هذا الفرعون قد كبر في نفسه كثيرًا، وعندما يكبر الفرعون في نفس الإنسان، فحينئذٍ لا يمكن إصلاح الأمر، ولا يمكن للإنسان أن يتحدّث، ولا يمكن أن تفعل له شيئًا. وهنا، تراه بدأ يتحرّك في هذه النفس ويمشي ويسير فيها.

الإجابة على الإشكالات وانعدام الفرعونيّة من علامات صواب المدارس

ولذا عندما تشاهدون مدرسةً ما وتلاحظون أنّ الفرعونيّة فيها كبيرة، فاتركوها واذهبوا بدون أيّ تردّد، ولا تضيّعوا وقتكم أبدًا! هل رأيتم البعض يقولون: (من يأتي إلى هنا، لا ينبغي أن يتكلّم ولا يرفع صوته بالسؤال!).. لماذا لا ينبغي أن يتكلّم؟! فعندما يكون عند الإنسان إشكال يساور ذهنه، فلماذا يُمنع من ذكره؟! من إذن سيرفع هذا الإيراد والإشكال الذي عنده؟

- يقولون: يا عزيزي، لا تتفوّه بالإشكال الذي في نفسك؛ فإنّه سيرتفع لوحده!
- ولكن يا عزيزي، ها قد مرّت ثلاثون سنة ولم يرتفع! فمتى يرتفع إذن؟!

لن يرتفع حتّى يأتي عزرائيل ويرفعه بنفسه، وإلاّ فقد انتظرنا طويلًا ولم يرتفع الإيراد الذي كان في نفسنا منذ ثلاثين سنة أو عشرين سنة أو خمس عشرة سنة أو عشر سنين. فهذا الإيراد الذي عندنا ينبغي أن يرتفع في النهاية! لقد انتظرنا في أوّل الأمر أسبوعًا على أمل أن يرتفع الإيراد، فلم يرتفع! فقالوا: اصبر يا عزيزي، فلعلّه يرتفع إن شاء اللَه! فصبرنا أسبوعًا آخر، ومع ذلك لم يرتفع الإشكال من قلبنا. نقول لهم: لقد مرّ أسبوعان، فما العمل؟ فيجيبون: ما الخبر؟! لماذا أنت مستعجل هكذا ، ولا صبر لك؟! اصبر قليلًا يا عزيزي.

وهكذا تمرّ سنة كاملة، وتمرّ سنتان، وعشر سنوات، فإذا بالإشكال الذي كان موجودًا قبل عشر سنوات لا يزال موجودًا حتّى الآن، تكاد روحي تخرج، فعيّنوا لي وقتًا لكي أرتاح ويرتاح قلبي بأن أسمع جوابًا على هذا الإشكال أو الإبهام أو الإيراد الذي عندي!

فيقال له: كلّا.. كلّا، عليك أن تصبر أكثر!

يا عزيزي، إلى متى هذا التأجيل والتسويف؟! لماذا يحصل كلّ هذا ؟ حتّى لا ينكشف أمره فيظهر على حقيقته، لأنّه لو ظهر على حقيقته لتبيّن أنّه خالي الوفاض. فلَيتهم من أوّل الأمر قالوا: يا أخي إنّ إشكالك صحيح ونحن لا نملك جوابًا عليه، أو قالوا: إنّنا لا نريد أن نجيب على الإشكال، فقم واذهب حيث تشاء، فأنت أدرى بمصلحتك، أو قالوا: إنّ الإيراد الذي ذكرته صحيح، ونحن لا نملك الجواب فابحث عمّن يمكنه أن يجيب على أسئلتك! لماذا نحجز خلق اللَه ونقول لهم: تعالوا إلينا، واصبروا وابقوا ههنا، ولا تقولوا شيئًا.. نقول له: أغمض عينك،

ولا تنبس ببنت شفة حتّى يحين الوقت المناسب لاحقًا! فليت شعري متى يأتي هذا الوقت اللاحق؟!

لقد كان خطاب رسول الله عندما جاء وخاطب المشركين أنّ عليكم أن تفتحوا عيونكم، وتفتحوا آذانكم لتروا الحقائق وتسمعوها، ثمّ تحكموا بأنفسكم.. قال تعالى: {فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه}[1]، فهؤلاء هم الذين بشّرهم الله تعالى في القرآن الكريم كما بشّر الشهداء، فالله تعالى يقول: بشّر هؤلاء بالصلاح وبشّرهم بالتكامل، وبشّرهم بالوصول إلى المقصد والغاية! هذا هو معنى البشارة وإلاّ فبأيّ شيء يبشّرهم، وما معنى البشارة هنا؟ ما معنى أن يقول تعالى: بشّر أولئك الذين يستمعون القول وينتخبون أحسنه فيتّبعونه؟! لنفرض أنّنا فعلنا ذلك، فما هي النتيجة؟ فبشارة الله تعالى لها حساب وكتاب! فالمراد: بشّر هؤلاء بأنّهم سيصلون من خلال هذا الطريق إلى ذلك الهدف وتلك الغاية التي ينشدونها والتي ينبغي أن يصلوا إليها، وأنّ الوصول وتحقّق هذا الهدف لا يحصلان إلا من خلال هذا الطريق، فلا يمكن أن تصل إلى الكمال إلّا من هذا الطريق وهو أن تسمع الكلمات المختلفة فهو يقول: {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} ولم يقل: (يستمعون القول الحسن)، وبالتالي فعلى الإنسان أن يسمع الكلمات المختلفة والآراء المختلفة. كما قال الشاعر:

مرد آن است كه گيرد اندر گوش * ور نوشته است پند بر ديوار**

(يقول: الرجل كلّ الرجل هو من كانت الحكمة ضالّته فهو يستمع إليها بغض النظر عن القائل، وينظر في الكلام حتّى لو كان مكتوبًا على الحائط)

إنّ حضرة سليمان عليه السلام قد قبِل نصيحة عصفور، وتأثّر بها حتّى خرّ مغشيًا عليه... بسبب كلام عصفور!

و من هنا، فعلى الإنسان أن يتّبع هذا السبيل: {فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه}، وليس سبيل من يكون جوابه عن الأسئلة والإشكالات: يا عزيزي إنّك لا تفهم الآن! فابق هنا حاليًا، واصبر أكثر...

---

[1] سورة الزمر، ذيل الآية ١٧ و صدر الآية ١٨.

نعم، يمكن أن يكون هناك أمور لا تقبل الإدراك والفهم.. أجل، فهناك الكثير من المطالب التي لا يمكن إدراكها؛ ومثل هذه المطالب لا داعي لأن يذكرها الإنسان أصلًا، فهي مطالب لا يمكن أن يفهمها كلّ أحد، ولكلّ مقام مقال. ولكنّ الكلام في المطالب التي يطرحها الإنسان، ويذكرها أمام الناس، ويدعو الناس إليها، فهذه المسائل لا يصحّ أن يقول عنها هذا الكلام (أي أنّها لا تقبل الفهم)، وإلاّ فإلى أيّ شيء يدعو الناس؟! فأنا عندما أكتب كتابًا وأذكر فيه أمرًا ما، وأطبعه وأنشره في الدنيا كلّها، فذلك يعني أنّني حاضر للجواب عنه.. هذا هو معنى ذلك، وإلاّ فلمَ تكتب هذه المطالب؟! إن لم تكن قادرًا على الجواب على الإشكالات، فلم تكتب أصلًا؟! كان عليك أن تبقي تلك الأمور في قلبك ولا تنشرها للناس.

فأنا عندما أذكر مطلبًا للرفقاء وأبيّنه، فإنّ ذلك يقتضي أن أكون مستعدًّا للجواب على الإشكالات والأسئلة والإبهامات التي تطرأ في الأذهان، وهذا لا شكّ فيه. فمثلًا في تلك القضية التي طرأت قبل عدّة سنوات حول مسألة حجّية أفعال أولياء اللَه، وطال البحث فيها سنة أو سنتين.. في هذه القضية كان الرفقاء يشاهدون أنّني كنت في كلّ ليلة أقول مصرًّا: من كان عنده سؤال أو إشكال حول البحث، فليتفضّل بطرحه بشكل مكتوب أو شفاهيّ، لكي نقوم ببيان جوابه في أثناء الكلام، ونبحث في أطرافه وجوانبه المختلفة ليتّضح ويثبت، علمًا أنّ رأيي في تلك المسألة ما يزال هو نفسه، ولم يتغيّر أبدًا، ومن المفترض أن يصدر كتاب عن هذا الموضوع قريبًا إن شاء اللَه.

في ذلك الوقت كنت أقول للرفقاء: هناك أمور ومسائل في هذا البحث لا يمكن طرحها، وأنا لم أطرحها ولم أذكرها لأحدٍ أصلًا! ومن الواضح أنّه ليس لأحدٍ أن يأتي ويقول: (يا سيّد، ما هو ذلك المطلب الذي لم تذكره؟ يجب عليك أن تبيّنه لنا!)، كلاّ، ليس له ذلك كما أنّه ليس بإمكاني أن أبيّنه ولا يصلح ذلك، ولكنّني لو ذكرته، فحينئذٍ يتوجّب عليّ أن أكون مستعدًا للجواب على الأسئلة والإشكالات، فطالما أنّني لم أطرح المطلب، فليس لأحد أن يعترض، ولكن بمجرّد أن أذكره وأطرحه أو أكتبه في كتاب أو مقالة، فعليّ حينئذٍ أن أبيّن الأمر وأذكر أدلته بأن أقول مثلًا: دليل الأمر الفلانيّ هو كذا، وبيان الموضوع الفلانيّ هو تلك المسألة، فإن

قال لي أحد: يا سيّد، إنّني لا أقبل بالدليل الذي ذكرته، ولم أقتنع به، فسوف أقول له: هذا ما لديّ من أدلّة، وليس عندي غيرها، وأمّا أن أقول: كلاّ يا عزيزي، إنّ الأمر كما قلته وذكرته، وعليك أن تبقى هنا معنا، وتصبر وأنت ساكت دون أن تنبس ببنت شفة، فذلك خطأ وغلط؛ وذلك أنّ طريق اللَه وطريق السلوك ليس بهذا النحو، بل إنّ طريق اللَه يتمتّع بالشفافية والحريّة بالنحو الأتمّ والأكمل، يعني أنّه لا يوجد حرّية أكبر من تلك التي يتمتّع بها سالك طريق اللَه تعالى.

قصّة ابتعاد أحد تلامذة المرحوم العلاّمة ممّن كانوا يرون لأنفسهم مقامًا

كان هناك رجل صاحب حالات، وكان وضعه معاكسًا تمامًا لما يذكره الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرات، فقد كان يعتبر لنفسه مقامًا كبيرًا وموقعيّة خاصّة في هذه المدرسة.. مدرسة المرحوم الوالد رضوان اللَه عليه، ولكنّ ذلك قضى عليه في آخر الأمر، وهذا طبيعيّ؛ لأنّ الإنسان لا يمكن أن يستمرّ على هذا المنوال، بل من كان هذا حاله فإنّه سيقضي عليه عاجلًا أو آجلًا. لقد وصل الأمر بهذا الرجل إلى أنّه صار يفعل أمورًا مخالفةً للنهي الصريح للسيّد العلاّمة، وكانت أعمالًا خطيرة ولا تحمد عقباها، وكان لها آثار وتبعات، وكانت هذه التبعات تقع على رأس السيّد العلاّمة، يعني هذه القضيّة كان لها خلفيّات، وكان هذا التصرّف منه غير صحيح. وقد أدّى ذلك إلى أن طرده سماحته، ثمّ بعد ذلك حاول إصلاح الأمور بطريقة ما ومن خلال توسيط أحد الأفراد، فجاء إلى السيّد الوالد، وقد كنت حاضرًا في ذلك المجلس، وخلاصة الأمر أنّ المرحوم السيّد الوالد التفت إليه بعد حوار طويل وقال له: إنّك تدّعي أنّك تفهم وتستطيع أن تشخّص، وأنت بنفسك تقول لهذا وذاك: أنا قادر على التشخيص؛ فلماذا إذن جئت إلى هنا؟! ولأيّ شيء تريد منّي أن أسمح لك بالرجوع، وأستقبلك مرّة أخرى؟! لمَ تريد ذلك؟! إنّك تدّعي أنّك تفهم وتدرك الأمور على واقعها، وأنت بنفسك تقول: لقد وصلت إلى الواقع وحقيقة الأمر؛ فإن كنت قد وصلت كما تزعم، فلأيّ شيء جئت إلى هنا؟! ألست تقول: لقد شخّصت أنّ الأمر في قضيّة فلان كذا (وكان تشخيصه خلافًا لكلام السيّد العلاّمة رضوان اللَه عليه، فهو كان يقول: نحن شخّصنا أن الأمر كذا، وأمّا وليّ اللَه فهو مكلّف بالعمل بحسب

الظاهر ورعاية المجتمع والمصالح المختلفة، ولذا هم يراعون ذلك في ما يقولونه، أمّا نحن فإنّنا نراعي الباطن وحقيقة الأمر!)، أجل، لقد قال له السيّد الوالد رحمة اللَه عليه: حسنًا، بما أنّك قادر على التشخيص، وتصرّح بذلك، فلماذا جئت إلى هنا إذن؟!

والحاصل، بعد اللتيّا واللتي قال له السيّد العلّامة: هل ستقبل ما أقوله لك؟ وهل ستنفّذ كلّ ما آمرك به، ولن تعترض؟ فأجاب: أجل، سأفعل دون اعتراض، فقال سماحته: حسنًا، اذهب وافعل كذا! عندما سمعت ذلك، قلت في نفسي فورًا: إنّ هذا مستحيل.. من المستحيل أن ينفّذ هذا الرجل ذلك أبدًا.

وأمّا هو فقد قال بحسب الظاهر: "حاضر، سوف أفعل ذلك"، وذلك أنّه لم يستوعب بعدُ ما الذي أصابه فالإنسان عندما يكون في حرارة الموقف فإنّه يقول: حاضر! ولكنّه عندما، يخرج من المنزل، ويبدأ بتقليب الموضوع في رأسه، ثمّ يأتي الغد وبعد الغد، سيرى أنّه: يا للعجب، ما هذه الورطة التي وقعت فيها؟! أمّا في نفس الموقف، فإنّ حرارة الموقف والحضور عند الأولياء والأعاظم تجعله يقول: نعم، ويظنّ الأمر سهلًا، وهذا يحصل كثيرًا.. أجل يحصل كثيرًا ولذا يقال: عندما يكون الإنسان في حرارة الموقف خذ منه الإقرار الذي تريده، وذلك لأنّه ما يزال تحت تأثير الموقف...

و عندما خرجنا من الغرفة، التفتُّ إلى السيّد الوالد رحمة اللَه عليه، وقلت له: سيّدنا، هل تتصوّر أنّه سينفّذ ما أمرتَه به؟ فقال: لا ، لا أعتقد ذلك أبدًا! قال: إنّه قد حزم أمتعته، ومضى في سبيله؛ فكيف له أن يخضع لي؟!

انظروا، إنّه يقول: "لقد حزم أمتعته"؛ يعني إنّه يمشي في الطريق المعاكس تمامًا ويمضي في زاوية تبعد ١٨٠ درجة عن مسير السيّد الوالد! ولكن هل كان حال هذه الزاوية هكذا من البداية؟ لقد بدأت زاوية قليلة، ثم صارت تزداد وتزداد وتزداد بالتدريج حتّى دار وصار يتحرّك في الطريق المعاكس، لا أنّه فقط يبتعد عن الصراط السويّ، بل لقد صار يمشي بالعكس إلى الوراء! ومثل هذا كيف يمكن له أن يخضع لما أقوله له؟! وكيف يمكن له أن يطيع ما آمره به؟ وهذا ما حصل فعلًا فقد ذهب دون رجعة، والآن لا يُعلم في أيّ وادٍ هو. لقد انتهى أمره إلى أن

قال أمورًا وكلمات في حقّ السيّد الوالد رحمة اللَه عليه أستحي أن أذكرها.. إنّ ما قاله مخجل واقعًا بحيث أنّني لا أستطيع أن أذكره أبدًا.

من كان هذا؟ تلميذ سماحته! أجل تلميذ سماحته.. تلميذه السلوكيّ! فلماذا حصل ذلك؟ لأنّه عندما كان...

أيّها الرفقاء، أحبّ أن ألفت نظركم إلى أنّ هذه المطالب التي أذكرها لكم، ليست من تلقاء نفسي، فلقد كنّا نحضر في جلسات ليالي الثلاثاء التي كان يعقدها رحمه اللَه، وكنّا نراه ونسمعه يقول نفس هذا الكلام، كما كنّا نحضر في ليالي شهر رمضان ونستمع إلى شرحه لدعاء أبي حمزة الثمالي، وكان يذكر هذه المطالب، غاية الأمر أنّنا نوضّح المطالب أكثر أو نبسّط الحديث في بعض جوانبها ونفصّلها، وإلاّ فهذه المطالب بعينها موجودة في محاضراته، والأشرطة المسجلة، وفي مؤلّفاته، ويمكنكم أن تذهبوا وتشاهدوا ذلك بنفسكم.

التزام المرحوم العلاّمة بهذا المبدأ هو سبب وصوله

فكم كان يؤكّد على هذا الأمر! وما أَنا يا رَبِّ وما خَطرِي ـ ونظائر هذه العبارة، فلا يقتصر الأمر عليها فقط ـ فما هي مكانتي يا ربّ حتّى تحاسبني أو تعاقبني؟ فأيّ مكانة أمتلك أنا؟! وهذا هو السرّ الذي أوصله إلى ما كان يجب أن يصل إليه. فمن خلال مشاهدتنا لتعامله وتصرّفاته، لم نلاحظ أيّ تفاوت فيها بين حاله في اليوم الأول الذي تعرّف فيه على ذلك العظيم ـ أو العظماء، فقد كانوا متعدّدين ـ أقصد المرحوم السيِّد الحدّاد رضوان اللَه عليه، وبين حاله في الأيام الأخيرة من حياة المرحوم السيِّد الحدّاد.

وكنت برفقته في إحدى المرّات خارج مدينة مشهد ـ فلقد أمضينا أسبوعًا هناك بناءً على توصية الطبيب بضرورة الخروج من المدينة بسبب وضعه الصحيّ ـ فجرى الحديث في إحدى الليالي عن علاقته بالمرحوم السيِّد الحدّاد. فقال لي: أتعلم بأنَّ مدّة تتلمذي على يد المرحوم السيِّد الحدّاد كانت ثمانية وعشرين سنة، وهي مساوية لنفس المدّة التي تتلمذ فيها السيِّد الحدّاد على يد المرحوم القاضي؟ فلقد كانت تلك المدّة ثمانية وعشرين سنة أيضًا. فقلت: لم أكن منتبهًا

إلى هذا الأمر إلى الآن. قال: لقد أمضى المرحوم السيِّد الحدّاد لدى المرحوم القاضي ثمانية وعشرين سنة بالضبط؛ وهكذا كان الأمر معي. فمعنى كلامه هو إنَّني كنت تلميذًا للسيّد الحدّاد لمدّة ثمانية وعشرين عامًا؛ ولقد كنت طوال هذه المدة صفرًا.

قال لي أحد الأصدقاء حفظه اللَه، والذي يسكن الآن في إحدى المدن، قال لي شخصيًا: عندما التقيت بالمرحوم والدكم ـ أقول هذا الكلام للإخوة الآن لكي يعلموا، وتصل إلى مسامعهم الأمور بشكلها الصحيح ـ يقول: كانت تلك هي المرّة الأولى التي رأيته فيها؛ ولقد كنت أحسب حسابًا لكيفيّة التعامل مع العظماء، وواجبي تجاههم، ولزوم مراعاة الأدب في مقابلهم. يقول: ذهبت هناك، وصافحته وقلت له: أنا أبايعك على أنَّك أستاذي، حيث سأنفّذ كلّ ما تأمرني به، وسأترك كلّ ما تنهاني عنه. فقال لي: وأنا أقبل بيعتك على هذا الأساس، وهو أنَّني واسطة بينك وبين السيِّد الحدّاد ـ فلقد كان السيِّد الحدّاد على قيد الحياة في حينها ـ وأنا صفر في مقابله؛ وها أنذا إذ أقبل هذه البيعة منك، فإنَّما أقبلها بعنوان بيعة مع السيِّد الحدّاد، ولما كنت أنا الواسطة في هذا الأمر، فيدي هي يده، وأنت تبايعه هو الآن. فقلت له: أنا أتقبّل كلّ ما تأمر به.

كم هو جميل أن يكون الإنسان على هذه الحال، فهو يقول: أنا أتقبّل كلّ ما تأمر به، فلا يختلف الأمر لديّ سواءً كانت هذه البيعة معك أو مع أستاذك، فهذا المكان مكان للعشق. فالأستاذ هنا في مقام التعليم، فهو يقول: مع وجود أستاذي، فأنا لا أستطيع أن أطرح نفسي في مقابله. انظروا مقدار أدبه، بل هو يطرح أمرًا واقعيًا هنا ولا يقتصر الأمر فيه على إبراز الأدب. ومتى كان ذلك؟ لقد كان ذلك في أواخر أيام المرحوم السيِّد الحدّاد. فلقد كان المرحوم العلاّمة قد وصل إلى مقام البقاء قبل هذا الوقت بزمن طويل؛ أي كان قد وصل هذا المقام في عهد المرحوم السيِّد الحدّاد. ومن جملة الموارد النادرة التي يحصل أن يتواجد فيها اثنان من أولياء اللَه، بحيث يكون كلّ منهما قد وصل إلى مقام البقاء في نفس الفترة الزمنيّة، هو عهد المرحوم الوالد رضوان اللَه عليه.

وكنت قد سألته مرّة: هل يمكن أن يتواجد اثنان من أولياء اللَه في وقت واحد، فقال: من النادر جدًا أن يحصل ذلك، ولكنّه أمر ممكن الحصول. وأنا أقول في هذا المقام: أنا أقطع وبناءً على ما كنت أشاهده من حالاته، بأنَّه كان قد وصل إلى مقام البقاء التامّ في أواخر عمر المرحوم السيِّد الحدّاد على أقلّ تقدير. ومع هذا فهو يقول لذلك الرجل: أنا أرى نفسي صفرًا في مقابل أستاذي. فبأيّ لغة يمكن أن يبيّن هذا الأمر؟ فهو يقول: أرى نفسي في مقابله صفرًا. فهل انتقص منه شيء نتيجة لتصريحه هذا؟ [فقد يقال:] يا للعجب! وهل يمكن للعلاّمة الطهرانيّ مع ما هو عليه من هذه المكانة، ومع تلك المسائل التي لا يعلمها الآخرون، والتي كنت أشاهدها بنفسي، بأن يأتي ليقول: أنا أرى نفسي في مقابل أستاذي صفرًا؟ نعم لقد كان يقول ذلك.

أحوال أمير المؤمنين مصداق لهذا المبدأ

وهكذا كان حال أمير المؤمنين مع رسول اللَه، فقد كان يقول: إنَّما أنا صفر في مقابل رسول اللَه، فمن أكون أنا؟ فأنا عبدٌ من عبيد محمّد. فما معنى عبد من أولئك العبيد؟ هذا يعني بأنَّ العبد يساوي صفرًا، فليس للعبد إرادة مستقلّة؛ فهل يمكن أن يكون للعبد إرادة مستقلّة؟ هل يستطيع فعل أيّ شيء يريد؟ وهل يستطيع الذهاب إلى أيّ مكان يشاء؟ وهل يستطيع التصرّف بأيّ نحوٍ كان؟ فلو فعل ذلك، لكان قد ارتكب مخالفة؛ فلا بدّ وأن يكون تصرّفه بإذن مولاه.

يقول أمير المؤمنين: لا تقولوا بأنَّني أنا الذي قلعت باب خيبر، أو أنا الذي رددت الشمس؛ فأمير المؤمنين كان قد قام بردِّ الشمس في عهد رسول اللَه أيضًا، فأنتم تعلمون الحادثة؟ ولقد عمل على ردّ الشمس مرّتين، حصلت إحداهما في حياة رسول اللَه، حيث كان هنالك مسجد في المدينة في نفس المكان الذي حصلت فيه الحادثة باسم مسجد ردِّ الشمس، وقد قاموا بهدمه؛ وحصلت الأخرى بعد وفاة رسول اللَه في مدينة بابل في العراق عندما كان عائدًا من صفين. وها أنا أقول عن لسان أمير المؤمنين ـ وأعتقد بأنَّ جدي سيكون راضيًا إن شاء اللَه عمّا أقول ـ: لا تتعجّبوا من ذلك، فقلع باب خيبر وردّ الشمس وشقّ الجبل وما هو أكبر

من ذلك إنّما هو عمل لا قيمة له إذا ما قورن بقدرة رسول اللَه، فأنا عبد ليس إلاّ، فلا تروا ذلك منّي، بل هو من رسول اللَه؛ كما إنَّ الرسول يقول: لا تروا ذلك منّي، بل هو من اللَه. فما الذي يقوله الجميع؟ يقولون: توجّهوا إلى اللَه؛ فلماذا تنظر إليَّ فيشتبه عليك الأمر وترى لي وجودًا وشخصية وشأنًا إلى جنب وجود اللَه؟ ولماذا لا تنظر إلى الحقيقة وواقع الأمر؟

يجب علينا دائمًا أن نعتبر هذا الأمر كأصل أوليّ، بل وعلينا أن نتذكّر دائمًا بأنَّه أهمّ وأدقّ أصل. وأنا أقول لكم هنا أيّها الإخوة: إنَّ هذا الأمر يعتبر أهمّ من الصلاة والصيام والحجّ والخمس والزكاة، بل وأهمّ من الجهاد في سبيل اللَه والأمر بالمعروف. وهو ألاّ يقيم الإنسان لنفسه وزنًا؛ فهذا أهمّ من كلّ شيء. فإن امتلكت هكذا حال، فستُقبل منك صلاتك وصومك وحجّك، وإلاّ فسيكون حجّك مثل حجّ عمر، وصلاتك وصومك مثل صلاة وصوم عمر وأبي بكر.

فكان أمير المؤمنين يقول للقوم: إنَّ رسول اللَه قد أمر بالإتيان بصلاة التراويح فرادى، فمن تكون أنت [يا عمر حتّى تأمر بخلاف ما أمر به النبي]؟ كان عمر يقول: أنا مثل النبي، فإن كان قد أمر بأدائها فرادى، فها أنا آمر بأدائها جماعة! فيا للعجب! لقد كان يقول: أنا زميلُ محمّد، أي عِدلُ محمّد. لقد نسي جناب عمر ما الذي كان عليه قبل الإسلام. فقد حضرتَ لدى النبي لسنتين يا عمر، لم تقاتل خلالها، بل كنت تهرب دائمًا؛ فهنالك رجال آخرون، هم الذين كانوا يقاتلون؛ ثمّ ترفع نفسك لتقول: أنا زميل محمّد.[1] فهل أوصلك الإسلام إلى هذه الدرجة؟ العياذ باللَه من أن يحصل للمرء شيء كهذا! فيعتنق الإسلام، ثم يتكلّم بكلام كهذا! فيا ليتك لم تُسلم منذ البداية، إذًا لبقيت على ما كنت عليه، أعرابيًّا من أهل البادية مثل عرب الجاهليّة الآخرين؛ ولا يصل بك الحال إلى أن تقوم بغصب الخلافة وتمزيق جسد بنت رسول اللَه وقتلها، وتملأ صحيفة أعمالك وحتّى العرش بهذه الأعمال؛ ثم يأتي اليوم الذي تُحاسب فيه عليها. فليتك لم تسلم من البداية وتبقى على ما كنت عليه. إنَّ الأمر في غاية الأهميّة.

[1] تاريخ الطبري، ج٣، ص ٢٩١.

لهذا كان المرحوم العلاّمة يحذرنا من هذا الأمر بصورة مستمرّة [ويقول:] ليت ذلك الذي يأتي ويضع قدمه في طريق السلوك ثم ينحرف عنه، ليته لم يأتِ منذ البداية؛ فسيكون مَثَله مثَل البيضة التي [لم تكتمل حضانتها بعد] فتفسد وتتلف؛ فلو لم يكن قد جاء منذ البداية، لبقي بيضة سالمة، فعلى الرغم من عدم تحوّلها إلى فرخ دجاج، غير إنَّه كان بالإمكان الاستفادة منها كبيضة قابلة للأكل على الأقل. أمّا أن يأتي إلى هذا الطريق، ويتعلّم أمورًا، ويتبدّل حاله، ثم ينحرف ويتبدّل مسيره، وتتبلور في نفسه وتبرز لديه تلك الأنانيّة والاستكبار، فلا يمكن علاجه والحال هذه؛ فليته لم يأتِ منذ البداية؛ نعم، ليته لم يأتِ؛ فليته بقي على ما كان عليه كطالب للعلوم الدينيّة ولم يكن قد وضع قدمه في هذا المسير، وليته بقي على ما كان عليه كبائع مشغول بالبيع والشراء، ولم يكن قد اطّلع على هذه المسائل، وليته، وليته، ... فخلاصة الأمر، علينا أن نلتجئ إلى الله ونطلب منه عدم سلبنا تلك النعمة؛ فتلك مسألة حياتيّة يتوقف عليها وجود الإنسان بأكمله.

«وما أنا يا ربِّ وما خطري» إنَّ الإمام السجّاد إذ يخاطب الله بهذا الخطاب، يدرك حقيقة الأمر أكثر من أيّ فرد آخر، أكثر منّي ومنك. فما أقوله الآن، والذي تدركونه أنتم وتحلّلونه في أنفسكم، يشعر به الإمام السجّاد بتمام وجوده، فلو سأل الله الإمام السجّاد يومًا: ما هي مكانتك ومن تكون؟ فماذا سيكون جواب الإمام؟ إنَّه سيقول: أنا صفر يا ربّ. وهو نفس ما قاله المرحوم العلاّمة عندما قال: أنا في مقابل أستاذي صفر؛ ولم يقل هذا الكلام في بداية تعرّفه على أستاذه فقط، بل لقد سمعناه منه مرارًا وتكرارًا طوال حياته؛ فكان يقول: أنا صفر في مقابله. ولم يكن ذلك من باب التواضع ومجرّد إظهار الأدب تجاهه، بل كان يرى واقع الأمر ويلمسه ويقول ذلك بناءً عليه؛ هذا في الوقت الذي كنَّا نشاهد منه كلّ شيء. فهنا يكمن العجب، وذلك بأن يظهر ويبرز من أحدهم كلّ هذه الأمور، وفي الوقت نفسه يمتلك حالًا كهذا في قرارة نفسه، ولا يرى لتلك الأشياء معنىً ولا يكون لها تأثير على نفسه. فجميع تلك الأشياء تتوقف عند لباسه وتبقى خارجًا ولا تنفذ إلى قلبه لكي تفسده.

ضرورة التخلّي عن كافّة الاعتبارات والألقاب قبل الدخول إلى مجلس الذكر

لذا فقد كان يقول: على الإخوة والأصدقاء أن يلقوا بكلّ ما لديهم خارج المجلس قبل ورودهم إليه، فعليهم أن يقوموا بتفريغ ما لديهم خارج الباب ويدخلوا المجلس وحيدين. أتلاحظون عظمة هذا الكلام؟ لقد علّمنا كلّ ذلك، ولكن أين هي الأذن الواعية؟ فعلى المهندس، أن يتخلى عن علم الهندسة الذي يمتلكه ويضعه جانبًا عند وصوله الباب، ويدخل بسرواله وقميصه فقط، وعلى الطبيب أن يضع علم طبّه جانبًا ويدخل بسرواله وقميصه فقط، فليس لهذه الأمور مكانة هنا. وكذا يكون الأمر مع المجتهد. كما ينطبق هذا الأمر على الرجل الوضيع أيضًا، فالحذر من أن يأخذ وضاعته بنظر الاعتبار، فعليه أن يضع فقره جنب الباب ويدخل وهو مرتاح البال. وعلى من يمتلك شيئًا أن يتركه خارج الباب ويدخل. فهذا المجلس هو من مجالس ذكر اللَه. وليس لهذه الأمور الاعتباريّة مكانة في مجالس ذكر اللَه، بل تكون لها مكانة في أماكن أخرى، فتستطيع في تلك الأماكن أن تضيف إلى نفسك ما تريد إضافته، فإن كنت طالبًا للعلوم الدينيّة في سنتك الأولى، وقلت بأنَّك آية اللَه العظمى، فلا ضير في ذلك وتستطيع أن تفعله! وإن كنت طالبًا في المرحلة الأولى من كلية الطب، وادّعيت بأنَّك بروفسور تمتلك العديد من شهادة (P H D) فلن تواجه مشكلة بسبب ذلك! أمّا في هذا الطريق، فلا مكان لمثل هذه الأشياء؛ بل يجب أن تطرح كلّ ما لديك جانبًا وتأتي بمفردك، نعم، وحيدًا. فإن جئت وحيدًا، فسينالك الفيض؛ فلقد كان مجيئك بمفردك، ولم تكن قد جلبت معك شيئًا آخر. يقول اللَه: أنا واحد وأبحث عن الوحيد؛ فإن قلت أنا أمتلك كذا وكذا من الخصوصيّات، لقيل لك، لقد أخطأت العنوان، فعليك الذهاب إلى مكان آخر، ومتى ما جئت بمفردك، فسيكون لنا معك شأن آخر، فسيحصل لك شيء ما عندها. فعلينا السعي دائمًا على المحافظة على حال الشعور بالفقر وعدم امتلاك المؤهّلات، وعلينا أن نضع عبارة الإمام السجاد تلك نصب أعيننا دائمًا.

أعتقد بكفاية هذا المقدار من شرح هذه الفقرة على الرغم من أنَّ هنالك أمورًا أخرى تتعلّق بها ممّا يمكن الحديث عنه، ولكن يبدو أنَّنا إذا ما توسّعنا في الحديث عنها، لن يبقى لنا

الوقت الكافي للحديث عن سائر الفقرات. نعم، هنالك الكثير مما يمكن الحديث عنه بشأن هذه الفقرة، غير أنَّ الإخوة من أهل المعنى إن شاء الله [ولا يحتاجون إلى مزيد من التوضيح]. فنسأل الله أن يوفّقنا لتحقيق هذه المواضيع، التي تفضّل بها العظماء والتي عمل الأئمة على تعليمنا إيّاها، في أنفسنا والالتزام بها ومتابعتها؛ وألاّ نقتنع بمجرد حضور المجالس. فهذه الحقائق قد تمّ نقلها وسماعها من العظماء. فكم يمكن أن يُعمِّر ذلك العظيم؟ فهو يعيش سبعين أو ثمانين سنة بيننا، ثم يرحل عنَّا؛ وما سيبقى لنا منه هو أحاديثه. فالمرحوم العلاّمة لا يعيش بيننا في الوقت الحاضر، فهو قد انتقل إلى رحمة الله قبل أكثر من عشرين عامًا؛ غير أنَّ كتبه وخطبه المسجّلة قد بقيت لنا، فإلامَ ترك كلّ هذه التسجيلات؟ فهو ليس بيننا الآن، ولم يكن باستطاعتنا الاحتفاظ به، وكم من الوقت نستطيع الاحتفاظ به؟ لسبعين سنة، أو لثمانين سنة؟ فلا بدّ وأن نفقده في يوم من الأيام. فهو يقول: لقد ارتحلت عن الدنيا، ولكنَّني قد تركت لكم أحاديثي وخطبي وتلك المباني التي عملت بموجبها ووصلت بواسطتها إلى المقصد.

فعلينا أن نشكر الله ونحمده على دلالته إيّانا على هذا الطريق، ألا وهو طريق أهل البيت، وهو طريق النجاة الوحيد وهو العروة الوثقى للفلاح والفوز. نسأل الله أن يديم يد ولاية بقيّة الله أرواحنا فداه فوق رؤوسنا. إن شاء الله. آمين يا ربّ العالمين.

اللّهمّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّد